

الفصل الثامن

الثقافة والتعليم من النصف الثانى للقرن ١٩

حتى سنة ١٨٨٢

شهدت مصر منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى بداية الاحتلال البريطانى عددا من المتغيرات والقوى الجديدة ، ما شكل التعليم ووجهه وجهات تختلف الى حد كبير عما كان عليه فى النصف الاول منه ، ومن هنا كان من الضرورى الوقوف على هذه المتغيرات والقوى الجديدة حتى يكون لنا من الوضوح الفكرى ما نتمكن معه من ادراك وفهم ما كان يجرى على مسرح التعليم من وقائع وأحداث .

١ - المتغيرات الجديدة :

(أ) **انفتاح شهية الرأسمالية العالمية لمصر :** كان الكثير يتوقف على شخصية الباشا الحاكم فى مصر « لأن الحكم كان شخصيا وليس شعبيا » (١) ولقد رزئت مصر فى تلك الفترة بحكام استطاعوا عن طريق ما تميزوا به من سفه وطيش وتبذير واسراف أن يفتحوا شهية الرأسمالية العالمية لمصر ، فتتمكن من مصر وتمتص من دماؤها ما يدفع بها الى الثمالة حتى يتم التتويج بدخول الجيش البريطانى فى سنة ١٨٨٢ .

(ب) **بدء ظهور الرأسمالية المصرية :** واذا كنا نلمس بوادر ظهور تعليم قومى فى البلاد فى عهد اسماعيل ، فلم يكن الا انعكاسا لما بدأت الأرض المصرية تشهده من حيث ظهور طبقة من كبار الملاك المصريين وتبوء عدد لا يستهان به من المصريين لبعض المناصب الادارية الكبرى (٢) .

ولعل نظام الاحتكار وهروب الفلاحين من زراعة الأرض فى عهد محمد على وعزوف المشايخ عن خدمة الحكومة لثقل الأعباء التى كانت تلقى عليهم قد حال دون وجود بذرة صالحة لنمو طبقة ميسورة من هؤلاء المشايخ يمكن أن

(١) دافيد لاندز : بنوك وباشوات : ترجمة عبد العظيم أنيس ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) حسين فوزى النجار : أحمد لطفى السيد ، ص ٢٧ .

تكون نواة لطبقة من الأعيان المصريين تستطيع أن تطاول طبقة الذوات التركية ، حتى اذا كان حكم سعيد واصدار اللائحة السعيدية في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ التي أباحت الملكية الخاصة للأطيان وحرية التصرف فيها بالبيع والرهن ، وأعفت الفلاحين من المتأخرات التي كانت عندهم وقدرت حينذاك بثمانمائة ألف من الجنيهات أخذ المصريون يقبلون على حيازة الارض واقتنائها . وبدأت تتكون طبقة من ملاك الأرض المصريين ساعدت على نموها عدة عوامل أخرى ، وأصبح بعضها من كبار الملاك ، وسرعان ما أخذت تنافس طبقة الذوات التركية ثراءها وان قصرت عن أن تنافسها الجاه والسلطان .

(ج) ضعف الثقة في العقلية المصرية : وعلى عكس ما أظهرته بعض الجهود التي قام بها محمد علي في النصف الأول من القرن ١٩ من ثقة بقدرة العقلية المصرية على التعلم ، فإن السنوات التي تلت مدة حكمه حيث تولى ابنه عباس الحكم قد شهدت من المظاهر ما يدل على عكس هذا . فالتصنع للعديد من الوقائع والأحداث يلمس كيف كان هذا الوالى ، يستكثر على المصريين أن يتعلموا ، فهم من الفلاحين الذين لا يليق لهم العمل الا فى الحقول وخدمة السادة الأتراك ، فلقد كان يمثل الأرستقراطية التركية فى أضيق حدودها وأشكالها : فطرابيش مستخدمى الحكومة وأزياؤهم يجب أن تكون على مثال ما يلبسه الموظفون فى (دار السعادة) (١) وعليهم أن يرسلوا لحاهم كما يفعل الموظفون فى دار السعادة أيضا .

ويرسل عباس مؤنبا طلاب البعثة المصرية فى الخارج - أو الفلاحين - بأنهم ما زالوا متخلفين « بطباع الحونة التى هى طباعهم الأصيلة » . ويتهددهم بإعادتهم الى القرية وتلبيسهم ملابس الفلاحين وسلوكهم فى فلاحه الأرض .

وغضب عباس غضبا شديدا عندما علم بارسال جريدة الوقائع الى عدد كبير من الموظفين والعلماء والتلاميذ وأعيان المصريين فقرر أن يحظر ذلك على غير أصحاب رتبة أميرالاي وما فوقها ، ذلك أنه استشاط غضبا حين علم أنها ترسل « لجماعة أمية وسفلة مثل حسن أغا وكيل الحرج وفيض الله أغا الطاهي وموسى اليهودى الآلاتى » . فلما رأيت ذلك خجلت من نفسى ، !! .

ولم يكن الحديوى سعيدا مختلفا فى ذلك عن سلفه ، فالصبغة العسكرية واضحة فى أكثر مؤسساته التعليمية ، ولهذا نرى أن معظم تلامذتها كانوا من

الترك والماليك من أبناء كريد والمورة والأناضول ، أما العنصر المصرى فكان قليلا أو منعدما . فمدارس سعيد لم تنشأ لتربية أبناء الشعب ، وانما أنشئت لتربية عدد من مماليك الوالى وكبار ضباطه وموظفيه واعدادهم لوظائف الحكومة وخاصة السلك العسكرى ، وهذا فى أغلب الأحوال راجع الى قلة ثقة سعيد فى تعليم المصريين . ومن الأمثلة على ذلك أن المدرسة الحربية بالاسكندرية كان بها - كما يثبت جدول الامتحان - ٢١٢ تلميذا . من بينهم سبعة طلاب فقط كتب أمامهم « مصر لى » وليس معنى هذا أنهم مصريون حقيقة ، وانما من « المولودين » بها ، أما الآخرون فمن الشركس وأبناء المورة والأناضول وأزمير ومرعش وكريد وآستانة . الخ .

(د) أزهار الثقافة الجديدة تبدأ فى التفتح :

فى عهد محمد على سافر رفاعة الطهطاوى وسافر على مبارك وسافر غيرهما الى أوربا ، وهناك تفتحت عيونهم وعقولهم على مشاهد لم يألوا لها مثيلا فى بلادهم . رأوا فى البلاد الأوربية دساتير تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ونشاطا فى كل ألوان الحياة . وتقدما علميا وماديا غربيا عليهم ، والتفت معظم المبعوثين الى تيار العلم المتدفق وكلهم حماسة لنهضة بلدهم (١) .

وعندما عاد هؤلاء - كانوا أول صلة حقيقية بين مصر وبين الثقافة الأوربية فى العصر الحديث . حيث حملوا معهم بذور النهضة الحديثة وألقوها فى التربة المصرية . ثم ينتشر التعليم على نطاق شعبى فى القرى ، ويتكون « اتحاد الشبيبة المصرية » الذى يدعو الأفراد الى فتح المدارس والتوسع فى التعليم الحر تخفيفا للعبء الملقى على الميزانية وسعيا وراء نشر الثقافة بين أبناء البلاد على نطاق واسع ، وتكثر المدارس الأجنبية كثرة كبيرة وتزدهر النهضة فى الناحيتين الثقافية والاجتماعية ، وذلك عن طريق انتشار الصحف .

وقام عدد من الجمعيات العلمية مثل جمعية : المعارف لنشر الثقافة عن طريق التأليف والنشر سنة ١٨٦٨ والجمعية الجغرافية التى عنت بالدراسات الجغرافية والمطابع ودور الكتب .

ولابد أن نذكر كذلك أن دار الأوبرا قد بنيت فى ذلك العهد ، وأن

(١) ماهر حسن فهمى : قاسم أمين ، ص ١٣ .

نهضة مسرحية تكاد تبلغ الذروة كانت فى تلك الايام ، فتتعدد المسارح وتؤلف الروايات وتعرب التمثيليات •

وتوج هذا وذاك بتلك الكلمات الصارخة الثائرة تستنهض همم الشرقيين على وجه العموم والمصريين على وجه الخصوص قالها جمال الدين الأفغانى •

من الاضمحلال الكمى والتدهور النوعى فى التعليم الى الازدهار الكمى :

ألقى معظم المدارس فى عهد عباس(١) بعد الذى عطل منها فى أواخر عهد محمد على ، وأقفلت أبوابها ، عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها الا عدد قليل • واختار من تلاميذ المدارس التى ألقاها عددا أدرجهم مدرسة أنشأها سنة ١٨٤٩ سماها « المفروزة » وكانت المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية حربية • ومن الحجج التى سيقى فى تبرير هذا العمل الشائن ، الاقتصاد فى النفقات ، ومع ذلك ، فقد أرسل هذا الحاكم حملة مؤلفة من نحو ٢٠٠٠ مقاتل لمساعدة الأتراك فى محاربة الروس ٠٠٠ !!

واستمر الاضمحلال والتدهور فى عهد سعيد •

وأبرزت - كالعادة - حجة قلة الاعتماد وضيق ذات اليد ، وفى نفس الوقت ، فتحت الاعتمادات على مصراعيها ولم تضيق ذات اليد لايفاد حملة مصرية الى المكسيك لمساعدة نابليون الثالث ، وهكذا تصل الشهامة (السفه فى حقيقة الأمر) الى الحد الذى يضيق فيه على أبناء البلاد لمساعدة الدول الأخرى ، هذا بالإضافة الى استمرار مساعدة الأتراك فى محاربة الروس •

بيد أن هذا الاضمحلال وذلك التدهور انتهى بانتهاء حكم سعيد ، وبدأ التعليم يشهد حيوية وحركة وازدهارا ، وان كان مثل هذا الازدهار وهذه الحيوية قد اقتصرا على الجانب الكمى فقط دون الكيفى ، وللتدليل على ذلك نذكر الحقائق الآتية :

أ - من المدارس الحربية : أنشئت مدارس البيادة (المشاة) سنة ١٨٧٤ - السوارى (الفرسان) سنة ١٨٦٥ - الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية سنة ١٨٦٥ - مدرسة أركان الحرب ، سنة ١٨٦٥ -

(١) عبد الرحمن الراغى : عصر اسماعيل . ج ١ ، ص ١٦٠ •

مدرسة الخطرية (الاطفال العسكرية) سنة ١٨٧٤ - مدرسة صف الضباط
سنة ١٨٧٤ - مدرسة قلفاوات الشيش - مدرسة الجبخانجية .

وقد أقفلت هذه المدارس فى أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة
١٨٧٩) نظرا للافلاس المالى وأنشئت بدلها المدرسة الحربية المستجدة فى
ابريل سنة ١٨٧٩ .

ب - **المدارس العالية** : أنشئت مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٦٦ -
مدرسة الحقوق سنة ١٨٦٨ (أو الادارة والألسن) - دار العلوم سنة
١٨٧٢ .

ج - وإذا لم تكن فى البلاد من مدارس نسوية الا مدارس الولادة التى
لم يكن يتعلم بها فى الغالب سوى البنات الحبشيات ، الا أنه فى سنة
١٨٧٣ ، بدأ اتخاذ خطوات جذرية لتعليم البنات فى مصر سوف نتحدث
عنها تفصيليا فيما بعد .

د - **المدارس الصناعية** : مدرسة الفنون والصنائع سنة ١٨٦٨ ،
وكانت تعرف بمدرسة العمليات - مدرسة التلغراف سنة ١٨٦٨ ، وألغيت
سنة ١٨٦٩ ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع - فرقة النقاشين ، سنة
١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧١ .

هـ - **المدارس الخصوصية** : أنشئت مدرسة المساحة والمحاسبة سنة
١٨٦٨ - مدارس اللسان المصرى القديم (اللغة الهيروغليفية) سنة ١٨٧٩
فرقة الرسم بالمدارس الملكية سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٨٩ - مدرسة
الزراعة ، سنة ١٨٦٧ ، وألغيت سنة ١٨٧٥ - مدرسة العميسان والحرس
للبنين والبنات ، سنة ١٨٧٥ .

و - **المدارس الثانوية** : المدرسة التجهيزية سنة ١٨٦٣ (وعرفت
بالخديوية) - مدرسة رأس التين بالاسكندرية سنة ١٨٦٣ .

ز - **المدارس الابتدائية** : وقد أفردنا لها حديثا مستقلا .

ح - أعاد اسماعيل عهد البعثات التى ازداد بها عصر محمد على من
قبل ، وأخذ يوفد الطلبة الى مدارس أوروبا منذ سنة ١٨٦٣ ، وبلغ عددهم
- فيما يقول الرافعى - مدة حكمه ٦٧٢ طالبا .

سياسة التعليم بين ضيق الألق والاضطراب والتخبط (١٨٤٩ - ١٨٦٣) :

عندما يتضح للمستولين في قطاع ما أن القائمين به لا يسيرون سيرا حسنا ، بل يفتقدون المقومات الأساسية اللازمة لمن يكلف بالعمل ، فمن المنطقي ألا يكون هذا داعيا لالغاء « العمل » نفسه وإنما المطلوب هنا هو تغيير « الكادر » القائم بمن هو أصح وأقوم سبيلا ، هذا هو المنطقي ، ولكن عباس الأول عود من يقرأون تاريخه أنه لا يسير وفق قواعد المنطق السليم ، فيكفى أن يلمس تقصيرا في مجال ما حتى يبادر بإلغائه ، أو على الأقل بالتهديد بذلك مما يدل دلالة قاطعة على ما كان عليه هذا الرجل من ضيق أفق وخاصة في المجال التعليمي (١) .

كتب في سنة ١٢٦٦ هـ الى مدير ديوان المدارس يقول « لما وصلت الى المنيا هذه المدة دعوت المهندسين المتخرجين في ديوان المدارس الذي هو مؤسس لتثقيف الشعب وتنشئة رجال نافعين للوطن ، وعند اختباري اياهم وجدتهم مجردين بالكلية من العلم والعمل .. فضلا عن هذا وجدنا بعضهم غير ملمين بعملية ضرب الأرقام ... » .

وأمر عباس بطرد أولئك المهندسين وعدتهم خمسة عشر مهندسا وتوعد بالعقاب من يعود الى استخدامهم كما أمر بتعيين خمسة من أكفأ المهندسين ليقوموا بعمل المهندسين المفضولين متوعدا بامتحانهم عند عودته من سياحته بالوجه القبلي « فاذا تبين أنهم جاهلون أيضا ولا يصلحون الا لجلب الحسانر فحتما سأطردهم من الخدمة أيضا وسأضطر الى الغاء ديوان المدارس » .

ويتحين عباس الفرص للقضاء على بعض المدارس فيضيق عليها الخناق ويلقى أمامها بالصعوبات ، ويتعلل بالعلل الترافعية والمضحكة في كثير من الأحيان لإلغائها فقد أصدر أمره بنقل مدرسة الطب البيطري من اسطنبول شبرا الى الوجه البحري .

ولم يمض على الأمر العالي بنقلها الى الوجه البحري شهران حتى صدر أمر عباس الأول الى الكتخدا بإلغاء المدرسة وطرد جميع الأطباء البيطريين من خدمة الحكومة واسترداد نياشينهم ، مبررا ذلك بأن « الأطباء البيطرية الذين نشئوا منذ صغرهم وأعدوا للعمل بعد نفقات عظيمة واحتمال كثير من التعب

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر ، محرر عباس وسعيد ، ص ٢٠ .

والمشقة كانوا هم السبب الوحيد فى هلاك عدد كبير من الدواب والمواشى بالجفالك وغيرها من الجهات الأميرية ، فضلا عن أنهم أتلفوا الجسود الأحمر السقلاوى الذى أرسله حضرة الشريف الى حضرة مولانا الأكبر . . . » .

أما سياسة سعيد فقد اتسمت بالتخبط والاضطراب ، فإذا كان يقبل على العلم فى صدر شبابه ويختلط بالناس - ومنهم الأجانب - ويعرف عنهم ومنهم الكثير ، ويشترك مع أبيه فى بعض المشروعات الإصلاحية ، إلا أنه يقدم من الأدلة والبراهين ما يدل على تقلبه وتخطئه ، وعلى أن عهده كان نكسة أخرى للتعليم فى مصر ، وهكذا فالجيش يرعاه فيكثر عدده وينتظم أمره ويبث فيه دعوة يحبب الوطنيين اليه ، وإذا به يضيق بهذا الجيش فيأمر بحله ويقصر همه على فرقة من الجند يدعوهم باسمه ويفقد عليهم من حسن الثياب وطيب المأكّل ولطف المنظر . والسودان ، يهفو اليه فؤاده فيزوره متفقدا أرجاءه ، حتى إذا غضب لبعض شأنه ، اعتزم إخلاء هذه البلاد .

ويذكر الياس أيوبى أن سعيد قال لكونج بك مربيه السويسرى الذى أصبح صديقه الخاص بعد ما تولى العرش ، وكان يحضه على إعادة فتح المدارس التى أقفلها عباس سلفه « لماذا نعلم الشعب ؟ لكى يصبح الحكم عليه والتصرف فيه أسمر مما هو عليه ؟ دعمهم فى جهلهم ! فالأمة الجاهلة أسلس قيادا فى يدى حاكمها » (١) .

وهو يشجع كلا من (أدهم باشا) والطهطاوى على وضع لائحة تهدف الى النهوض بالتعليم الشعبى ثم يأمر بوقف تنفيذها .

بدء الاهتمام بأعداد المعلم :

فى سنة ١٨٧١ كان بسرأى درب الجماميز (مكان المدرسة الحديوية الآن) جملة مدارس عليا ، عدا ديوان النظارة والمكتبة الحديوية (دار الكتب) وعدا مدرجا أنشئ خصيصا للاحتفال بالامتحانات التى كانت تجرى سنويا أمام الحديوى أو نائبه ترغيبا فى الاقبال على العلم وتنشيطا للتلاميذ .

ورأى على مبارك - وكان صاحب الفكرة فى انشاء هذا المدرج - أن ينتفع به طوال العام بدلا من قصر الانتفاع به على موسم الامتحانات فقط ،

(١) الياس أيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية

ففكر في أن تلقى به محاضرات عامة لكبار الأساتذة • وفعلًا أخرج فكرته الى حيز التنفيذ في يولية سنة ١٨٧١ ، واختار اسم دار العلوم ، علما على هذا المكان مجاريا في هذه التسمية مسميات المعاهد العلمية انقدية في الشرق « كبيت الحكمة » وكان يستمع لهذه المحاضرات في بادئ الأمر طائفة من موظفي الحكومة والمدرسين وبعض طلبة المدارس العالية ، وفريق من طلبة الأزهر (١) .

ولم يمض على انشاء مدرج دار العلوم شهران حتى طلب على مبارك من الشيخ العباسي شيخ الأزهر تعيين بعض العلماء الاعلام للتدريس بدار العلوم على حساب ديوان الأوقاف ، وانتخاب عشرة من نجباء الطلبة بالأزهر يحضرون بعض دروس « دار العلوم » العربية والشرعية ويربط لكل منهم خمسة وعشرون قرشا اعانة لهم من ديوان الأوقاف ولهم الحق في حضور الدروس الأخرى كالفلك والطبيعة وينتخب منهم المدرسون عند الحاجة • وقد تبودلت المكاتبات بين مدير عموم المدارس وشيخ الأزهر • وتمت الموافقة على المطلوب (٢) .

ثم التمس على مبارك من الحديو اسماعيل فتح مدرسة بالمكان السابق الذكر يكون عدد طلبتها خمسين طالبا لاعداد مدرسين بالمدارس لتعليم اللغة العربية واللغة التركية • فأجيب الى طلبه •

وقد صدر الامر العائى بتحقيق هذا المطلب في ١٨٧٢/٩/١ (٣) .

وآذن عام ١٨٨٠ بحدوث تغيير هام ، فدار العلوم رغم أنها أنشئت لاعداد المعلمين ، الا أن هذا الاعداد وقف عند حد الاعداد العلمى فقط ، وظلت كذلك الى أن بدأت الجهود تظهر في أواخر السبعينات من القرن الماضى للنهوض بجميع جوانب التعليم ، وهذه الآمال ، هى ما يصوره تقرير قومسيون المعارف الذى كلف بدراسة أحوال التعليم في مصر واقتراح مايراه أعضاؤه لتحسين أحواله ، وكان من الطبيعى أن تحتل قضية اعداد المعلم مكانا هاما في هذه الجهود ، وبقراءة التقرير ، يمكن أن نلمس بوضوح مدى وعى القومسيون بأهمية « الطريقة » الجيدة في التعنيم وتعلمها والتدرب عليها ، فقد جاء فيه :

(١) جمعية المعلمين : الكتاب الذهبى لمدرسة المعلمين العليا (١٨٨٥ - ١٩٣٥) ص ١٩

(٢) محمد عبد الجواد : تقويم دار العلوم ، دار المعارف ، ١٩٥١ ، ص ٨

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣

« وعيوب التعليم الابتدائي في الجهات الكائن بها الآن ليست ناشئة عن كثرة عدد التلاميذ على المعلم الواحد ، وانما هي ناشئة عن كون التعليم قاصرا جدا ، يعنى انه مقتصر فيه على حفظ القرآن وعلى القراءة والكتابة ، وعلى كون طريقة التعليم ليست خصوصا مستوفية ٠٠٠ » .

وجاء في نفس التقرير :

« ٠٠٠ وحيث أنه قد زاد احتياج الأهالي الآن الى انتشار المعارف بينهم ، والمانع من ذلك أمران : أحدهما : عدم كفاية النقود الضرورية لاجاد بعض مدارس جديدة ، والثاني : عدم وجود أشخاص جديرين بالتعليم في درجاته المتنوعة » .

« فالأمر الأول يمكن استدراكه بحسن التفات المجلس ، والأمر الثاني يمكن استدراكه بتحسين مدرسة دار العلوم الموجودة الآن ، وایجاد مدرسة أخرى للمدرسين تفتح في عهد قريب لتعليم اللغات الأجنبية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية التي هي من أعظم احتياجات الأهالي لتسهيل انتشار المعارف بينهم » .

ثم أصدر مجلس النظار قرارا في ١٣ يولييه من عام ١٨٨٠ بتأسيس مدرسة المعلمين العمومية (النورمال Ecole Normal Central) ، وكانوا يسمونها « مدرسة الحوجات » .

وقد نص قرار تأسيس المدرسة على أنها تتكوّن من انضمام مدرسة دار العلوم ومدرسة المعلمين الجديدة وأنها قد تتكون من قسمين ، قسم لاععداد معلمين للمدارس الابتدائية بدرجاتها الثلاث ، والقسم الثاني لاعداد معلمين للمدارس الثانوية .

ومدة الدراسة في مدرسة المعلمين للحصول على شهادة التدريس بالمدارس الابتدائية من الدرجتين الثالثة والثانية ، سنتان تخصص السنة الاولى لاعادة وتعميق مواد التعليم الابتدائي وفي السنة الثانية يضاف الى هذه الدروس المبادئ الأساسية في التربية ودروس عملية كثيرة .

أما مدة الدراسة للحصول على شهادة التعليم الابتدائي الراقى (الدرجة الأولى) فسنتان ، تخصص السنة الأولى منهما لاعادة مواد التعليم الثانوى مع تبسيطها وجعلها ملائمة للحياة العملية خاصة ، وفي السنة الثانية يتلقى الطلبة دروسا في مبادئ التربية ويمرّنون كثيرا على التدريس .

وسمح للتلاميذ الذين ينالون شهادة التعليم الابتدائي الراقى من درجة جيد جدا أو جيد ، أن يقضوا سنة تكميلية ، يتلقون فيها دروسا تعدهم للتدريس بالمدارس الثانوية ، وتخصص هذه السنة لاكمال دراسة التعليم الثانوى ، واعادة دروس التربية التى تلقوها فى شهادة التعليم الابتدائي الراقى ودروس عملية كثيرة .

ونص القرار على أن يقبل بالمدرسة طلبة خارجيون وطلبة داخليون يكونون من الفقراء أو ممن لا تقيم أسراتهم بالقاهرة .

وقد سمح للمعلمين العاملين فى المدارس الابتدائية من الدرجات الثلاث أن يلتحقوا بمدرسة المعلمين المركزية باختيارهم أو بقرار وزارى مدة من الزمن لا تزيد على العام ، وفى هذه الحالة يتابعون دروس السنة الثانية أو الرابعة .

كذلك نص قرار تأسيس المدرسة على أن تلحق بها مدرسة ابتدائية تجريبية تخصص لدروس التربية العملية ، ويلحق بهذه المدرسة - طبقا لما تراه النظارة - تلاميذ داخليون أو خارجيون ، ويكون بها معلم لكل فرقة ، وأجاز كذلك أن تنشأ بها فيما بعد فرق للتعليم الثانوى^(١) .

مشروعات لانهاض التعليم الشعبى دون جلوى :

كانت السنوات الأخيرة من حكم محمد على قد شهدت تدهورا مستمرا لقاعدة التعليم الشعبى (تعليم المرحلة الأولى) ، فاذا كانت لائحة التعليم سنة ١٨٣٧ قد قضت بأن يكون عدد المدارس الابتدائية خمسين مدرسة بالقاهرة والاسكندرية والمدن الرئيسية بالأقاليم ، الا أن عددها تناقص فأصبح ثمان وثلاثين فى سنة ١٨٤٠ ، ثم ألغيت كلها فى سنة ١٨٤١ ، ثم أعيد فتح أربع منها فى نفس العام لتعد - مع مدرستى الابتدائى بالقاهرة والاسكندرية - تلاميذ للمدرسة التجهيزية .

ثم جاء عباس الأول بسفبه وجهله ليقضى على البقية الباقية وخاصة تلك المدارس الابتدائية القائمة بالأقاليم والاكتفاء بمدرسة الابتدائى بالقاهرة .

(١) الكتاب الشعبى لمدرسة المعلمين العليا ، ص ٢٣ .

ورحتى مدرسة المتديان بالقاهرة لم تسلم من استبداد هذا الوالى وجهله ، اذ أخذ يضيق عليها الحناق حتى ألغاهها كلية •

وقد جعل التنظيم الجديد للتعليم فى مدرسة المهندسخانة - عدا قسم الهندسة - قسما ابتدائيا وآخر تجهيزيا • وهكذا تخلت الدولة عن تعليم الشعب • وظلت المكاتب الأهلية هى المنفذ الوحيد له •

والمستقرىء لللائحة التى وضعها أدهم باشا مع رفاعة الطهطاوى وتضمنت مشروع انشاء المكاتب الأهلية ، يلمس الدرجة التى كان عليها وعى الفكر التربوى المصرى بقيمة التربية الشعبية وأهميتها فى الوقت الذى يلمس فيه أيضا كيف أن الدولة فى ذلك الوقت - وعلى الرغم من ذلك - قد أصمت أذنها ولم تنفذ من هذه الأفكار شيئا (١) .

ومنذ عام ١٨٦٦ حدث تحول فكرى هام ، وفى ٢٢ أكتوبر من ذلك العام صدر النظام الأساسى لمجلس شورى النواب واشترطت المادة ٦١ من هذا النظام معرفة القراءة والكتابة فى النائب بعد ثمانى عشرة سنة • ونبه أحد النواب وهو « آتربى بك أبو العز » زملاءه بضرورة الاستعداد لذلك « بكثرة ايجاد المكاتب فى سائر بلاد الأقاليم » والمعنى الهام هنا هو أن التعليم - ليس فقط وسيلة لاعداد الموظفين اللازمين للدولة - بل هو فى الوقت نفسه أداة التربية السياسية ، وبعد أن تناقش النواب فى الموضوع ، وضعوا مشروعا يقوم على المبادئ والاسس الآتية (٢) :

- التعاون بين الجهود الحكومية والجهود الأهلية فى مجال التعليم الابتدائى •

- ضرورة تدبير موارد للصرف على هذا التعليم فى خارج نطاق ميزانية الدولة تخفيفا عن هذه الميزانية من جهة وتدعيما لصفقتها الأهلية من جهة أخرى •

- وترتب على ذلك أن دعيتم المدارس الابتدائية الجديدة - التى أنشئت فى ظل هذا النظام - بالمدارس أو المكاتب « الأهلية » توكيدا لصفقتها

(١) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، ج ٣ ، ملحقات ص ٦٠ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ وما بعدها •

« الأهلية » كمعاهد للتعليم الابتدائي الخارج عن ميزانية الحكومة . ومنذ ذلك الوقت نجد ان حكومة اسماعيل قد وضعت سياستها المالية في التعليم على أساس أن تقتصر الحكومة في الصرف على المدارس التجهيزية والخصوصية وهي المعاهد التي تعد لها الموظفين . أما المدارس الابتدائية وهي معاهد التعليم الشعبي التي ترمى الى نشر التعليم بين الأهالي « فيكون الصرف عليها من الأهالي والأوقاف » . اذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع دائرة التعليم ، وذلك يتفق بطبيعة الحال وأوضاع البلاد المالية في ذلك الوقت وبداية الاستنزاف الرأسمالي العالمي - عن طريق الحديوى - للمالية المصرية . ولذلك نرى أن النقص المتوالى في عدد تلاميذ المدارس الأميرية كان يقابله ازدياد في عدد تلامذة المدارس الأهلية .

- الاعتراف بالمكاتب أو الكتاتيب الأهلية والاكتفاء بها في القاهرة والاسكندرية - حيث تكثر مدارس الحكومة - والاستغناء بها عن فتح مدارس جديدة . هذا الى ادراك ضرورة اصلاحها حتى تصبح تحت اشراف الحكومة وسيلة طيبة لنشر تعليم أولى صالح .

وكان من الضروري وضع الاجراءات التي تبين كيفية تطبيق هذه المبادئ وتلك السياسة ، وهذا هو ما قام به على مبارك في اللائحة المشهورة باسم (لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ) - ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٧ . ومن أهم ما يسترعى الانتباه في هذه اللائحة محاولة وضع مبدأ « هيمنة الدولة على التعليم » موضع التطبيق ، بالنسبة للمكاتب الأهلية ، فتقرر « دخولها من جهة الادارة في فروع المدارس المصرية » . ويتبع هذا اخضاعها جميعا لاسلوب واحد في التعليم « لتكون طرق التعليم واحدة مفيدة على صورة جميلة حميدة » واستخدامها أداة « لنشر المعلومات الأهلية لا سيما في العلوم الأولية » . وحتى تتبين لنا ضخامة هذا العمل يكفي أن نعلم أنه ثبت أن القاهرة وحدها في ذلك الوقت كان بها ٢٢٢ مكتبا أهليا ، تتباين فيما بينها تباينا عظيما في كل شيء ، وكان اصلاح هذا العدد الكبير من المكاتب يعنى بعث الحياة في هذا الهيكل الضخم المترامي الأطراف .

والى جانب ذلك عנית اللائحة بانشاء المدارس الابتدائية بعواصم المديرية وهي التي سميت باسم « المدارس المركزية » روى في تنظيمها ادخال نظام (الخارجية) وخاصة للتلاميذ الذين يقيمون بالقرب من مدارسهم ونظام (المصروفات المدرسية) للقادرين من الأهالي ، وأن تكون مواردها من إيرادات الأوقاف وتبرعات الأهالي . وقد أنشئت بعد شهر من صدور اللائحة مدرسة في بنها وأخرى في أسيوط (يناير - فبراير ١٨٦٨) ريثما

تتيح الظروف انشاء مدارس فى عواصم المديريات الأخرى ، وأنشئت مدرسة فى بنى سويف ومدرسة فى المنيا (١٨٧٢ - ١٨٧٣) ومدرسة فى رشيد (١٨٧٦) وأخرى فى الفشن (١٨٧٩) وكلها أنشئت لتكون مكاتب (أهلية) ٠٠٠ الخ .

ولم يجر انشاء المدارس المركزية على النحو الذى رسمته اللائحة ، فظل النظام الداخلى المجانى قائما ، الا أنه منذ سنة ١٨٧٢ فرضت رسوم دراسية بسيطة على التلاميذ وبدأ بها النظام الخارجى فى نطاق محدود ، كذلك فان الاعتماد على التمويل الأهلى لم يتم كما كان مرجوا .

أما الكتابيب فقد قررت اللائحة لها بعض الاجراءات التى يمكن أن تصلح من شأنها مع الاحتفاظ بروحها وهيكلها .

وحاولت اللائحة أن توجد بابا مفتوحا بين النظام التعليمى الأهلى والنظام الحكومى فأشارت بأن التلاميذ المنتهين من المكاتب الفردية البسيطة يستطيعون أن يلتحقوا بالمكاتب الأهلية الكبيرة أو المدارس المركزية لتعدهم للحاق - اذا شاءوا - بالمدارس الأميرية .

وكان التعليم الشعبى على وشك أن يشهد تغييرا من نوع آخر لا يقتصر على الشكل والتنظيم وانما يتناول مضمونه ومحتواه والحياة المدرسية فيه ، اذ وضع (رياض باشا) بالتعاون مع (دوربك) خير التعليم السويسرى خطة تشمل التغيرات الآتية :

- ليست الحكومة ملزمة بأن تتحمل نفقات تعليم أبناء الفقراء من الناس ، أما أغنيائهم وأوساطهم فيدفعون رسوما تحدد طبقا لدرجة يسارهم .

- ضرورة تحديد سن التلاميذ ، فيتراوح سن التلميذ فى المدرسة الابتدائية بين الثامنة والثانية عشرة .

- تقسيم التلاميذ فى المدارس قسمين : تلاميذ بالقسم الداخلى ، والآخرون بالخارجى ، ويقسم كل فريق ثلاث درجات ، فتلاميذ الدرجة الأولى هم اصحاب اليسار وتلاميذ الدرجة الثانية هم اوساط الناس ، وتلاميذ الدرجة الثالثة هم الفقراء .

٢- تلميذ الدرجة الثالثة وهو الذى يتعلم على نفقة الحكومة بعد (ابنا) لها ولذلك ليس لأهله حق فى طلب اخراجه من المدارس أو نقله الا بمسند صحيح .

ولم تمض ستة أشهر من عام ١٨٧٤ على البدء فى تنفيذ هذه الخطة حتى أبعد رياض عن ديوان المدارس وتعطل التنفيذ وجمدت حركة الاصلاح الوليدة .

ثم يشهد تاريخ التعليم فى هذه الفترة صحوة أكبر ويقظة اعظم تتمثل فى ذلك المشروع الضخم الذى وضعت له لجنة لاصلاح التعليم (او قومسيون تنظيم المعارف) سنة ١٨٨٠ فى عهد الحديوى توفيق برياسة على (باشا) ابراهيم وزير المعارف فى ذلك الوقت .

بيد أن ما هب على مصر بعد ذلك بشهور من عواصف التدخل الأجنبى واندلاع الثورة العرابية ثم الاحتلال الانجليزى . عطل تنفيذ معظم ما ورد فى هذا المشروع من اقتراحات ، وان نفذ بعضها .

ارهاصات الاصلاح فى التعليم الدينى :

وبينما كان الأزهر بمعاهده يغط فى نوم عميق لا يحفل بما يترى على الحياة الدنيا من تغير ، لاحت البسداية الاولى لسلسلة طويلة من مشروعات لتجديد التعليم الدينى بعضها ظل حبرا على ورق والبعض الآخر نفذ جزء منه ولم ينفذ الآخر لمقاومة بعض رجال الأزهر له (١) .

وأول ما نجده فى هذا المجال ، لائحة رفعها الشيخ مصطفى محمد انغروسى الى الحديوى اسماعيل فى ١٦ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ . ويستوقفنا منها المعالم الآتية (٢) :

- ضرورة التأكد من أن المعلم الذى يقوم بقراءة كتاب ما على تلاميذه يفهم هذا الكتاب فهما حسنا وأنه قادر على تعليم ما فيه للتلميذ .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

- ينبغي على المعلم أن يتأكد من استعداد من جاء لطلب العلم على يديه
لذلك ، والا فليرده عن هذا الأمر •

- طريقة التعليم التي تسهل تأثير المعلم على التلاميذ وتزيد من نمو
ملكاتهم من الأمور المطلوبة •

- نظرا لهروب الكثير من الدخول في الخدمة العسكرية وكذلك مما كان
قائما من الأشكال العمومية عن طريق السخرة والاحتفاء بمجاورى الأزهر
الذين كانوا يعفون من هذه الاعمال ، أوجبت اللائحة تميز مجاورى الأزهر
ببطاقات خاصة حتى يسهل القبض على غيرهم •

- وجوب تعيين مصححين مراقبين فى المطابع المختلفة لتصحيح ومراقبة
ما يتم طبعه من كتب تتناول المسائل الدينية •

- اذا كان الأزهر قد كسب شهرة عالمية بأنه مشحون بالعلماء المحققين
والفضلاء الراسخين فى كل علم من العلوم الشرعية والعقلية والرياضية
« والحال الآن بخلاف ذلك فعلا ٠٠ » فقد وجب العمل على إعادة ما كان للأزهر
من فضل فى مثل هذه المجالات العلمية •

- أشارت اللائحة الى ضرورة الأخذ بنظام الامتحان السنوى حتى يمكن
متابعة أحوال الطلاب بدلا مما كان جاريا من عدم الامتحان •

٠٠٠ بالاضافة الى نصوص أخرى تتعلق بجوانب تهذيبية ، وتأديبية •

وعندما تولى الشيخ محمد العباسى المهدي مشيخة الأزهر سنة ١٨٧١ ،
أنشأ نظاما للامتحان لتخريج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ ، فقد كان
التدريس فى الأزهر خلوا من القيود ، فوضع الشيخ العباسى نظاما لامتحان
العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برئاسته مؤلفة من ستة من كبار العلماء •
ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية فى مختلف العلوم واعطاء الناجحين
منهم أجازة العالمية وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد فى
الأزهر •

وجاء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفتح فى الأزهر
روح النهضة وغرس بذور التقدم الفكرى والعلمى ، وقد بدت ثمارها بظهور
المدرسة الحديثة التى حمل لواها الشيخ محمد عبده فى الأزهر وخارج
الأزهر •

دعم تعليم البنات :

كان الرأي العام شديد التأثير في هذا الموضوع الى درجة أن محمد على الذى لم يكن لينحنى بسهولة أمام ضجته ولا يهاب سخطه - أبى الموافقة على ما أشار به مجلس معارفه الأعلام المشرب بالمبادئ الغربية والمقتنع بعظم تأثير المرأة المتعلمة فى المجتمع ، من وجوب تعليم البنات ، وإنشاء مدارس لهن أسوة بمدارس الصبيان واكتفى بتعليم بنات أسرته وجواريهن على يد المسز ليدر زوجة أحد مبشرى الانجليز ، التى أنشأت فى سنة ١٨٣٥ أول مدرسة أجنبية للبنات فى مصر ، بتشجيع من تلميذتها الخانم بنت محمد على الكبرى زوجة محرم بك أمير الأسطول المصرى ، ومحافظ نجر الاسكندرية المسمى باسمه الحى الكبير المشهور فى هذه المدينة .

ولما كان الناس - لا سيما الارستقراطيون - على دين ملوكهم ، اقتدى بمحمد على الذوات والوجوه ، وبدأت تنتشر فى البلاد عادة استخدام الارستقراطيين معلمات أجنبيات لتهديب بناتهم وثقيف عقولهن .

غير أن محمد على لم يكن بالرجل الذى يهمل قيام أمر يعتقد هاما ومفيدا لمجرد مخالفته للرأى ، وإذا لم يكن يرى صلاحية نفاذه واجرائه مباشرة ، كان ينفذه من وجه غير محسوس ، فلكى يهز جمود المجتمع عن تربية بناته هذا يوقظه من نومه أناه - بمشورة كلوت بك - من طريق سوى وأنشأ مدرسة قابلات .

وفى عهد اسماعيل ، نجد أنه أوعز الى ثالثة زوجاته الأميرة تشما آفت خانم بأن تكون أول مدرسة اسلامية تفتح فى مصر لتعليم البنات على الطريقة الغربية من عملها ، فاشترت الأميرة سراى قديمة بالسيوفية وجددت بناءها ، فصيرتها مدرسة وفتحت أبوابها للطالبات فى ربيع سنة ١٨٧٢ وهى السنة التى غرقت فيها القاهرة فى احتفالات تزويج اسماعيل لأبنائه الثلاثة توفيق وحسين وحسن .

ولكن بالرغم من أن تلك المدرسة جعلت داخلية مجانية ، وأن البنات استدعيت اليها من جميع الطبقات بلا تمييز مذهبى أو اجتماعى ، وبالرغم من أن المعيشة فيها جعلت هنيئة فاخرة ، لم يقع فى خلد أحد من الأهالى فى بادئ الأمر أن يبعث بابنته اليها ، لشدة تسلط الأوهام الموروثة بلا تمحيض كنهها على العقول .

فلم تجد الأميرة عدد التلميذات اللازم لمدرستها ، واضطرت الى أن أخذت فتيات الجوارى البيض من بيتها وبيوت أميرات الأسرة المالكة وأمرائها وادخالهن فيها .

غير أن الغشاوة التى كانت على العيون ، ما لبثت أن انقشعت ، وبدأ الناس يشعرون بأهمية تعليم البنات ، فأقبلوا من كل ملة ونحلة ، وتزاحموا ببناتهم ، وسنهن من سبع الى اثنتى عشرة سنة ، على أبواب المدرسة السيوفية ليدخلوهن فيها ، فامتلات بالداخليات المحلات المعدة لهن ، وعددها مائتان . واضطرا لاقبال الادارة الى انشاء مائة محل أخرى ، ولكن خارجية ، لمن لم يكن قبولهن فى مصاف الداخليات (١) .

فأصدر اسماعيل أمره الى ادارة الأوقاف ، بإنشاء مدرسة أخرى للبنات على نظام مدرسة السيوفية ، فتأسست فى جهة القربية سنة ١٨٧٤ . وكان التعليم فى كلتا المدرستين - ومدته خمس سنوات - مثله فى مدارس أوروبا التى من نوعهما ، أى القراءة العربية ، والكتابة والحساب والرسم ، والجغرافيا والموسيقى وأشغال الابرّة والطبخ والغسيل ، والتدبير المنزلى ، زيادة على تعلم التركية والفرنساوية وتلقين القرآن للمسلمات . ولكن مصروفات التعليم كانت تفوق مثيلاتها فى أوروبا لأن المظاهر هنا ، كانت فخمة كمظاهر كل ما كان يصدر عن اسماعيل ، وأما هناك فكانت بسيطة عادية :

وعندما عزل اسماعيل من الحكم ، أراد ديوان الأوقاف أن يقتصر تعليم البنات فى مصر على مدرسة واحدة ، على أن تكون هذه المدرسة هى مدرسة السيوفية ، وتضم اليها مدرسة القربية (٢) .

ميلاد فكر تربوى مصرى :

الملاحظ على النشاط التعليمى الذى رأيناه فى مصر منذ مطلع العصور الحديثة انه لم يكن وليد نظرية تربوية أو فلسفة تعليمية تكون هاديا ومرشدا لما يتخذ من اجراءات وما يقوم من مؤسسات ، وكان ذلك مما يتفق وحالة

(١) الياس أيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، م ١ ، ص ٢٠٨ .

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، ج ٢ ، م ١ ، ص ٣٧٣ .

الجمود التي كان عليها المجتمع المصرى بصفة عامة والثقافة المصرية بصفة خاصة . الا أننا فى هذه الفترة التي نتحدث عنها ، نلاحظ مولودا جديدا وهو الفكر التربوى المصرى ، صحيح أننا لا نستطيع أن نزعم له التكامل والخط الواحد والفلسفة الناضجة . وصحيح أننا لا نستطيع أن نزعم أنه مصرى الأب والأم ، الا أننا - على الرغم من كل هذا - لابد أن نسجل هذه الظاهرة واضعين فى الاعتبار الحالة التي يكون عليها المولود الجديد دائما أو الفكر فى بداية ظهوره ونشأته .

ومن المهم أن نشير الى أن هذا الفكر ليس وليد هذه الفترة بالذات وإنما هو فى حقيقة الأمر نتاج تلك الثقافية الواسعة النطاق التي رايناها فى سنوات حكم محمد على ، وقد ولد هذا الفكر على يد « رفاة الطهطاوى » أولا ، ثم « على مبارك » ثانيا ، ومن هنا فسوف نورد فيما يلى وصفا للملامح الرئيسية لهذا الفكر الجديد عند كلا الرجلين .

أولا : رفاة الطهطاوى : تتلخص الخطوط الرئيسية لفكر الطهطاوى فى التربية والتعليم فيما يلى من نقاط :

- عرف رفاة التربية بأنها « تنمية أعضاء المولود الحسية من ابتداء ولادته الى بلوغه حد الكبر ، وتنمية روحه بالمعارف الدينية والمعاشية » .

وهكذا نظر رفاة الى التربية نظرة شاملة فجعل موضوعها الطفل من ساعة أن يولد الى أن يتم نضجه ، وجعلها تشمل هذا الطفل من ناحيته الحسية والعقلية . وزاد على ذلك أنه جعل التربية عملية تؤدي الى تغير فى قدرات الفرد الى الأحسن والأصلح .

ولم ينس رفاة عملية التوجيه فى التربية كفن وصناعة له أصول وقواعد يقصد بها الى احداث التغيير المرغوب فيه ، فالتربية عنده جهد مقصود يتم على حسب أصول فنية مقررة .

- أكد رفاة أن للمرأة أن تنال تعليما مناسباً وأنه حق لها لا ينبغي أن تحرم منه (١) .

(١) أحمد أحمد بدوى : رفاة الطهطاوى . ص ٣١١ .

وأبرز الطهطاوى أهمية تدريس التربية الوطنية والمجتمع على أساس ضرورة أن يعرف كل مواطن ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، والأصول والنظم التى تسير عليها بلاده حتى تهيئه بذلك أن يكون مواطنا قادرا على التعامل بنجاح مع السلطات المختلفة ومع غيره من أفراد المجتمع (١) .

- فى أخلاق المتعلمين ، يرى رفاعة أن الأثرة خصلة دينية يجب أن يتخلص منها الأطفال ، فهى منبع الحرص والطمع ، ويرى أن يعلم الطفل ، ذكرا كان أو أنثى من بواكير الطفولة العقائد الدينية الدالة على وجود الله ووحديته ، ولا ينصح رفاعة بتوبيخ الطفل اذا خالف أصول الأدب فى بعض الأوقات ، بل لا يكشف بأنه أقدم عليه ، هذا فى أول أمره ، أما فى المرة الثانية فيوبخ الطفل سرا ، لأنه اذا تعود التوبيخ والمكاشفة أدى ذلك الى أن يكون وقحا ، ويهون عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح .

- فى صلة المعلم بالتلميذ ، يرى أن تبني صلة المعلم بالتلميذ على الحب والاخلاص . ويتكلم رفاعة عن أن التلميذ يدعو لأستاذه كلما شرع فى قراءة درس وتكراره أو مطالعته ، واذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضا ، كما يدعو الأستاذ للتلميذ . ويصر على أن يحترم المعلم تلاميذه ويجريهم مجرى بنية ، وأن يكون شفوفا عطفوا عليهم صابرا على جفائهم وسوء أدبهم ، ويستنكر ضرب معلمى القرآن تلاميذهم الصغار ففى هذا خروج على حد الشرع . غير أنه يجيز للأب تأديب ابنه بالضرب ، وينصح المعلمين بترغيب الأطفال على التعلم ، ومسايرتهم باللطف والرفق وأن يأذنوا باللعب فى بعض الأوقات .

واذا كان هذا موقف المعلم من المتعلمين ، فان رفاعة يطلب من المتعلمين التأدب مع الله ومع المربين ، والتواضع والاعتقاد فيهم ، ويرى أن يطيع المتعلمون المعلمين ويسمعوا أقوالهم وينتصحوهم بنصائحهم .

- العقلانية ، فالسمة البارزة فى هذا التفكير هى النزعة العقلية ... نفس السمة التى تميز مفكرى البورجوازية الثورية منذ عصر النهضة .. الطابع الديكارتى الواضح . واذا كان ديكارت يرى أن العقل أعَدَل الأشياء قسمة بين الناس ، ويبحث عن الوضوح والبدهة والفهم .. ويسعى دائما

الى التوفيق بين عقيدته وفكره المتفتح وايمانه الراسخ بالعقل . . فقد كان المفكر المصرى ، وهو فيلسوف التنوير والبعث يمر بنفس التجربة ، ويسعى الى نفس الهدف ، وينهج النهج ذاته . . أما عقيدة رفاة فراسخة لا يذكر لها شئ . . الأزهرى المؤمن الصادق الذى تمتزج فيه العقيدة بالوطنية . ولكنه يرى عقيدته تحت أضواء جديدة تماما . . ويفسرها بمنطق العقل وهدية . . ويحتفى بمنطق العقل وبالعلم احتفاء لا تحده حدود .

أما احتفاؤه بالعقل وبالفكر ، فنظريته التربوية كلها تقوم على أساس أن الانسان بطبعه يميزه النطق ، وأنه قادر بالعقل على تمييز الحق من الباطل ، الخير من الشر ، وأن العقل حتى قبل أن تهبط الشرائع ، كان قادرا على هذا التمييز . . وفى العدد الثالث من روضة المدارس يكتب مقالا بعنوان : بقاء حسن الذكر باستخدام الفكر ، يدعو فيه الى اعمال الفكر لاستنباط الصالح من الأمور . . وفى « المرشد الأمين للبنات والبنين » نجد : « يطلب كون العقل . . رآة العارف يميز به الحق من الباطل الله سبحانه وتعالى جعل العقل . . انورانى فى القلب الانسانى رآة للعارف الفاضل يميز به الحق من الباطل . . فالعقل النير رسول قبل واسطة النبى المرسل والملك المغرب . . وان كانت العقول أفادت قبل الشرائع نوعا من التدبير فالعقل الراجح الصحيح النظر الحالى من الموانع ، قد يميز الحق من الباطل » .

ودعا الطهطاوى الى عدم الاقتصار على دراسة العلوم اللغوية والدينية فقط كما كان الأمر فى الأزهر وسائر المعاهد الدينية . . وأوجب تعلم العلوم الحديثة لما لها من الأثر الذى لا ينكر فى بناء المجتمع الحديث ، ومن هنا نجده فى « مناهج الألباب » يحث أصحاب العلوم الشرعية على أن « يتشبهوا أيضا بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية » .

ويقول ان « هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية هى علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية » .

— لم ينظر رفاة الى التربية على أنها عملية فردية تقتصر على نمو التلميذ وتحقيق السعادة والنجاح له ، كما فعل أصحاب التربية القديمة والجهلة من غلاة التربية الحديثة^(١) وانما نظر اليها على أنها عملية اجتماعية

(١) أبو الفتوح رضوان : رفاة رافع الطهطاوى ، أول رائد للتربية والتعليم فى مصر الحديثة ، مجلة الرائد ، يناير ١٩٥٩ .

غايتها رفع مستوى الحياة فى الجماعة وتحسين طريقة حياة الأمة • بل صار خطوة بعد هذا المعنى فنص على أن التربية يجب أن تلتزم موجهاتها من أحوال الجماعة ، من نظمها وقوانينها ومشكلاتها ومقوماتها •

ثانيا : على مبارك : أما على مبارك فقد تحدت معالم فكره فى الخطوط الآتية :

- نادى على مبارك بأن التربية والتعليم لا يستهدفان تخريج طبقة قليلة ممتازة هى طبقة الحكام ، كما كان الأمر قائما قبل ذلك ، ولكن تنوير الشعب وبث الوعى القومى بين جميع أفرادها ولذلك أوجب أن يكون التعليم عاما بحيث يعم الريف ، وهو حق للمصريين - جميع المصريين •

وفى مسامرة من تلك المسامرات التى يتحدث فيها شيخ من شيوخ الأزهر يقول لهذا الشيخ أن نهوضه لتعليم أبناء قومه من الفلاحين خير له ولدينه من الجلوس الى مكانه فى الأزهر يقضى فيه عمره ، وهو فى هذه المسامرة أيضا يدعو لتعليم الصبية علوم الطبيعة التى تنفع الناس فى حياتهم هذه الى جانب تلك التى تنفعهم فى آخرتهم ، وتقوم أمور دينهم ، وهو يدعو الآباء لأن يعدلوا فى تعليم أبنائهم عن ذلك النمط الذى عرفوه وألفوه ، الى ذلك التعليم النظامى الذى تولى هو انشاءه والتوسع فيه الى أبعد حد كان مستطاعا له ، وتولى نظارته وألف فيه الكتب ، وسار بمصر فى طريقه شوطا طويلا •

- أما مناهج التعليم وطرقه فقد آمن على مبارك بنظرية وظيفية المادة الدراسية ففى رأيه أن المدرس يجب ألا يعلم التلميذ شيئا الا مقترنا بفائدته فى الحياة العملية والكيفية التى يطبق بها فى الحياة • وعاب على المدارس فى أيامه اقتصار مناهجها على القرآن والكتابة والقراءة ، ولذلك أعطى عناية كبيرة للعلوم الطبيعية والتاريخ القومى • ومنهج التعليم الابتدائى الذى وضعه هو أول منهج فى مصر تقرأ فيه مواد مثل « أصول الحساب وتطبيقه على التجارة » ، و « مبادئ الهندسة وتطبيقها على المساحة » ، و « والحوانات والنباتات الأهلية ومقدمة لفن الزراعة » •

- أما طريقة التدريس فقد لحص مذهب فيها بقوله انها تقوم على « اجتلاء المعقول فى صورة المحسوس فيتعاوض الفكر والنظر والعلم والعمل » (١) لذلك

(١) أبو الفتح رضوان : « على مبارك تلميذا ومربيا » مجلة التراث ، مايو ١٩٥٨ •

اهتم على مبارك بالوسائل المهيئة على التدريس ، وأوجب على المسلم أن يستعين بالوسائل .

- ومن الدعوات والآراء التي كان فيها على مبارك مستقبليا واسمع الأفق . دعوته لتعليم المرأة . وما يقول على مبارك في تبرير هذه الدعوة أن المرأة المتعلمة السافرة أصون لنفسها ، وأحفظ لكرامة زوجها وأهلها من الجاهلة المحجبة وهو لا يكتفى في تعليم المرأة ، بذلك القدر اليسير الذي يدفع عنها وصمة الأمية فقط ، بل يدعوها لأن تبعد في الثقافة والمعرفة حتى تستوى فيها بالرجل .

- وكان ارساء اعداد المعلم على دعائم علمية أثرا من الآثار الهامة التي يقدرها تاريخ التعليم في مصر لعلى مبارك . اذ لم يكن هناك قبل تعيين مبارك مديرا للمدارس وناظرا للمعارف - مدرسة يتخرج فيها المعلمون (١) .

بل يذكر يعقوب أرتين في كتابه (القول التام في التعليم العام) أن الحكومة كانت اذا صادفت انسانا تلوح عليه معرفة بعض الأمور وكلت اليه أمر التعليم في مدارسها .

وكانت المواد كافية في امداد الدولة بالمدرسين يوم أن لم يكن التعليم غرضا قوميا ، ويوم أن كان عدد المدرسين ضئيلا . أما أيام على مبارك ، فقد تغير الوضع ، تغير بالنسبة لوضع المدارس ، وتغير بالنسبة لذلك العدد الذي تحتاج اليه الدولة بعد أن أخذ في نشر التعليم ، وفي الاكثار من عدد المدارس .

شعر على مبارك بهذه المشكلة وصورها لنا بقوله : « وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الاستحصال على معلمين مستعدين للقيام بسائر وظائف التعليم ، أمعنت النظر في الأمر المهم » .

وقد أقر على مبارك للمكاتب فقهاء وعرفاءها ، وان يكن قد اشترط أن يحسنوا تجويد القرآن والخط ومعرفة القواعد الأولية من الحساب ، كما اشترط ألا يقبل شخص في سلك المؤدبين والعرفاء الا اذا كانت بيده شهادة

من أعيان بلده بصلاحيته للتعليم ، على أن يصدق على هذه الشهادة مندوب من ديوان المدارس • وليس لهذا من معنى إلا أن (على مبارك) قد أخذ بعين الاعتبار العمل على تحسين نوع المدارس •

وظلت الطريقة التي كانت متبعة من قبل - أيام محمد علي - قائمة هي الأخرى ، فكان على مبارك يأخذ المعلمين في غير العربية كالهندسة والحساب واللغات « من نجباء التلامذة المتقدمين الذين أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة والإدارة بأن يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب كل على حسب استعداده » أما مدرسو اللغة العربية ، فقد أنشأ لتخريجهم مدرسة خاصة بهم وهي : (دار العلوم) •

وليس من العجب أن يهتم على مبارك بأحداث مدرسة دار العلوم قبل أحداث غيرها من المدارس التي يتخرج فيها مدرسو المواد الأخرى كالحساب والهندسة وما أشبه ، فإن على مبارك ظل يشكو من مدرسه في النحو واللغة العربية طول عمره وظل يذكر أن طريقته في التدريس كانت سيئة إلى الحد الذي جعله لا يستفيد ولا يفيد ، ويرى على مبارك أن محاولاته السابقة في سبيل الحصول على المعلمين قد مكنته من العمل على نشر التعليم والاكثار من عدد المدارس دون أن يرهق ميزانية الدولة في عصر الأزمات المالية ، عصر اسماعيل •

ازدهار التعليم الأجنبي :

وكان طبيعياً أن يواكب ذلك الانفتاح بدون قيد ولا شرط بالنسبة لنشاط الأجانب في البلاد ، ازدهار في التعليم الأجنبي وخاصة في عهد سعيد واسماعيل •

ومما يؤثر عن سعيد أن راهبات الراعي الصالح - وكن قاثمات في مدرستيها بمصر والاسكندرية بتربية ستين بنت يتيمة من بنات البلاد على اختلاف أديانهم ، زيادة عن البنات الأخر الدافعات قيمة أجر تعليمهن وتربيتهن - وجدن العبء ثقيلاً عليهن ، فالتجأن إليه ورفعن إلى سعيد عرضاً طالبين فيه منحهن أردب بر ستويا - عن كل واحدة من تلك اليتيمات ، فأجاب طلبهن في الحال • ويرى كذلك أن راهبات المحبة بالاسكندرية ، كن قد فتحن صيدلية لتوزيع الأدوية مجاناً على المرضى ووجدن أنهن في احتياج إلى مبلغ

خمسـة آلاف فرنك ليتمكن من الاستمرار فى عملهن ، فسارع سعيد باعطائهن ما طلبن وأعطى كذلك لمدرسة ايطالية حكومية مبلغ ألفين وأربعمائة جنيهـه ووهبها ٨ آلاف ذراع فى نقطة من أحسن جهات الاسكندرية .

ومنح اسماعيل « راهبات الاحسان » ٣٥٠٠ ذراع لبناء مدرسة عليها بالاسكندرية ومقادير من القمح قدرها ٦٥ أردبا سنويا لمدرسة « الراهبات اليسوعية » وأمر كذلك بربط ٧٠٠ قرش بالأوقاف لوظيفة معلم اللغة العربية بمدرسة الأوربيين ببور سعيد ، وأمر بشراء كتب أجرومية قدرى بك للمدارس اليونانية ببور سعيد ، وأمر بصرف ١٠١٥٠ قرشا سنويا لمدرسة « العازارين » ، وكذلك ٩٢٥٠ قرشا و ١٥٠٠ أردب سنويا من القمح للفريز بالاسكندرية . كذلك منح الارسالية الأمريكية أرضا بالقرب من فندق شبرد ليقيموا عليها مركزا لحركتهم بدل مكانهم بالموسكى ، وأضاف الى ذلك هبة مالية قدرها سبعة آلاف جنيه ليبدءوا بها البناء ، وكان يطلب الى الهيئات المحلية الادارية أن تمد يد المساعدة فيها للقائمين على المدرسة الأجنبية لأن هذه المدرسة « من الأمور التى يجب المساعدة فيها » (١) .

وإذا اخترنا الأساليب الأمريكية كمثال للنشاط الأجنبى فى المجال التربوى ، فسنجد أن وصول المرسلين الأمريكين ، قد بدأ فى سنة ١٨٥٤ أثناء حكم سعيد باشا ، وأثناء احتدام المنازعات الطائفية فى الشام . يقول أندرو واطسن : « تولى سعيد باشا الحكم سنة ١٧٥٤ وهى نفس السنة التى دخل فيها مكاج وبارنت مصر وبدأ عمل الارسالية . كان أميرا طبيا مستنيرا . ولم يأت وقت منذ ١٢٠٠ عام أكثر مناسبة لبدء العمل التبشيرى فى البلاد . » (٢) ووصف الكاتب هذا الوالى بأنه « القديس الحامى للارسالية الأمريكية » ويقول : « أن الأجانب مدينون بالكثير لحكم سعيد باشا . . ولقد وضعت الارساليات فى أثناء عهده أسس عملها تلك الأسس التى لم يكن من المستطاع بعد ذلك هدمها بواسطة أشد المقاومات عنفا من جانب الحكام المدنيين والدينيين مجتمعين » . ويقرر واضع تاريخ الارسالية خلال مائة عام - أيرل الدر - أنه منذ البداية ، كانت الارسالية مدينة بالكثير لرجال الأعمال وأصحاب المهن الأجانب بسبب ما كانوا يزودونها به من مشورات

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين

ص ٢٧ - ٣٨ .

(٢) وليم سليمان : تيارات الفكر المسيحى ، ص ٨٧ .

ونصائح • وفى نفس الوقت تأكد هؤلاء من قيمة برنامج الإرسالية • وقد اقترح واحد منهم أن تتقدم الإرسالية بطلب للخديو ليمنحها منزلا أو قطعة أرض تشيد عليها مكانا دائما لها • وبالفعل أهدى لهم سعيد باشا فى سنة ١٨٦٢ بناء على تدخل من القنصل الأمريكى مبنى كبيرا فى أول شارع الموسيقى الذى كان وقتئذ الشارع الرئيسى بالقاهرة ثم باعته الإرسالية للخديو اسماعيل مقابل سبعة آلاف جنيه ذهبى •

أما تفاصيل مجيء المبشرين الأمريكين الأوائل الى مصر ، فمأظمة أشد الغموض • والمرجع الرئيسى هنا هو كتاب أندرو واطسن •

لقد حضر المرسلون الأوائل من دمشق بسوريا الى مصر سنة ١٨٥٤ • ويسوق الكاتب المذكور عدة أسباب لذلك ، من بينها الاضطرابات السياسية التى كثرت فى الشام الأمر الذى يجعل من مصر نوعا من الملجأ أثناء هذه الأزمات المتلاحقة • ومن المعروف أن الأحوال السياسية فى سوريا كانت مضطربة أشد الاضطراب خلال الأعوام التالية لسنة ١٨٤٠ ، وانتهى الأمر بقيام فتنة سنة ١٨٦٠ ذات الطابع الدينى بين النصارى والمسلمين والتى أدت الى تمكين السيادة الغربية فى هذه البلاد • ونجد فى كتابات المرسلين اعترافا بالنتائج التى تربت لصالحهم نتيجة هذه الفتنة • ويقرر يوجين ستوك مؤرخ الإرسالية الانجليزية ، أن وزارة الخارجية الانجليزية كلفت هذه الإرسالية سنة ١٨٥٠ بناء على طلب القنصل العام الانجليزى فى سوريا بفتح إرسالية للكنيسة الانجليزية فى لبنان(١) •

أما بالنسبة لنشاط الإرساليات والجاليات الأجنبية الأخرى فيمكن أيراد هذه الصورة الموجزة •

(١) بالنسبة للتعليم الفرنسى ، نجد :

* تأسست فى عام ١٨٦٦ إرسالية « راهبات سيدة الرسول »
■ Notre Dam des Apotres

وقد وفدت الى مصر عام ١٨٨١ وأسسست مدرسة بطنطا فى نفس العام وتزايد نشاطها بعد ذلك •

* أما ارساليات « راهبات الميردى ديو » La Mère de Dieu فقد وفدت الى مصر عام ١٨٨٠ فى عهد الحديو توفيق وأسست مدرسة ببولاى بالقاهرة ، وقامت الراهبات بتأسيس مدرسة أخرى بالاسكندرية عام ١٨٨٢ .

* أما مدارس (الفرير) فقد أنشأت كلية Saint Joseph بالقاهرة سنة ١٨٥٤ ، وفى نفس العام ، المدرسة المجانية الملحقه بالقاهرة أيضا . ومثلها فى باكوس بالاسكندرية فى عامى ١٨٧٣ ، ١٨٨٦ .

* وبدأت هيئة « الجزويت » Compagnie de Jésus نشاطها التعليمى عام ١٨٧٩ .

(ب) بالنسبة للتعليم الانجليزى ، نجد :

- بدأت الارسالية الاسكتلندية فى انشاء مدرسة للبنات فى حي المنشية عام ١٨٥٦ ، ثم تبعها مدرسة للبنين سنة ١٨٥٧ فى بناء مستاجر ، وفى عام ١٨٦٧ أنشأت الارسالية الكنيسة الاسكتلندية فى ميدان اسماعيل وانتقل التلاميذ الى الطابق الأرضى بها .

(ج) بالنسبة للمدارس اليونانية :

* افتتحت بالاسكندرية عام ١٨٥٥ مدرسة للبنات لم يكن بها سوى ناطرة ومدرسة .

* فى عام ١٨٦٠ أنشئت مدرسة « أبت » بالقاهرة التى اشتملت على قسم يونانى وقسم مصرى^(١) .

(د) بالنسبة للمدارس الأرمنية :

* فى عام ١٨٥٤ بنيت مدرسة بجوار كنيسة السيدة العذراء بدرب الجينية وسميت (خورنيان) Khorniean school ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم « مدرسة كالوسديان » Kalousdian .

ونشأت كذلك مدارس ألمانية وأخرى ايطالية .

وقد تخطى التعليم الأجنبى الحدود التى كان ينبغى أن يعمل فى داخلها بأن نشط فى تحويل بعض أبناء الاقباط المصريين الى المذهبين الكاثوليكي

(١) حرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى . ص ٨٢ .

والبروتستانتى ، وكان للنشاط الكبير الذى قامت به الارسالية البروتستانتية أثر كبير على أقباط مصر مما دفع بطريرك الأقباط فى ذلك الوقت الى القيام برحلة الى أسيوط فى عام ١٨٦٧ بغرض الحد من نشاط المركز الجديد للارسالية الامريكية هناك ، وبعد وصول البطريرك الى الكنيسة القبطية جمع المسئولين الأقباط وبدأت مقاومته لمدارس الارسالية . ومن ذلك أنه أمر بتجريد أحد القسس بمديرية أسيوط من منصبه الكنسى لسماحه لأخيه وهو أحد خريجي مدرسة اللاهوت بالارسالية الامريكية بالقيام بالخدمة فى الكنيسة القبطية عقب انشاء القداس القبطى الأرثوذكسى ٠٠٠ ومر البطريرك بأبى تيج وأخميم حيث أقفلت المدرسة البروتستانتية هناك عقب زيارته .

وكان من نتائج رحلة البطريرك تناقص عدد التلاميذ الملتحقين بمدارس الارسالية ، الا أن رغبة الناس فى اعفاء أبنائهم من أن يؤخذوا بالجيش جعلتهم يرسلون أبنائهم الى هذه المدارس ، وذلك لأن الدولة كانت تعفى كل من يلتحق بهذه المدارس من الالتحاق بالجيش أو الاشتغال باقامة السكك الحديدية والطرق العامة .

وليس من شك فى أن اطراد الزيادة فى عدد هذه المدارس وتلاميذها مع بقائها مستقلة تمام الاستقلال عن ديوان المدارس أو نظارة المعارف بحكم « الامتيازات الأجنبية » ، قد هال القائمين على شئون التعليم فى البلاد ، فتقدم ممصطفى رياض عام ١٨٧٢ بمشروع قانون لتنظيم المدارس الأجنبية أو المدارس الحرة على وجه العموم واخضاعها لهيمنة الدولة ، حيث رأى أن كل مدرسة حرة أو خاصة ينشئها أفراد من أهل البلاد أو من الأجانب يجب أن تنال رخصة من الحكومة المصرية ، وتخضع لتفتيش نظارة المعارف مع بقائها مستقلة وتشارك نظارة المعارف فى امتحان تلاميذ هذه المدارس . وبطبيعة الحال لم يكن لأحد فى الحكومة المصرية فى ذلك الوقت أن يجرؤ على تنفيذ هذا الكلام على المدارس الأجنبية .